الشيخ الطاهر الجزائري
1268-1338هـ / 1852-1920 م

أ. محمد الصغير بلعلام *

يقول عنه الإمام عبد الحميد بن باديس، في مجلة الشهاب "هذا الأستاذ العظيم، من أبناء الجزائر الكثيرين، الذين ظهر نبوغهم في غير وطنهم، ودلوا على أن الطينة الجزائرية، طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف".

وتقول عنه دائرة المعارف العربية الميسرة التي صدرت في القاهرة 1965 "طاهر جزائري، لغوي عربي، ولد بدمشق وتتلمذ علي كبار أشياخها، ومارس التعليم زمنا، ثم انتقل إلي القاهرة، حيث أقام بضع عشرة سنة، في أثناء الحكم التركي في الشام، وعاد قبيل وفاته إلى دمشق، فعين مديرا لدار الكتب الظاهرية، يعد من علماء الأصلاح اللغوي والديني، كان واسع العلم بالمكتبة العربية ومخطوطاتها، له رسائل في علوم اللغة، وتفسير كبير.

أما تلميذه العالم والمحقق المصري الشهير، محب الدين الخطيب فيقول في مقال نشره في إحدى مجلاته، ونقلته مجلة الشهاب في عدد جويلية 1937 بعنوان شيخي فيقول "هو الذي ربى عقلي وهو الذي حبّب إليّ هذا الاتجاه الفكري، منذ أن كنت طفلا، حتى صرت رجلا، ولا أعرف مؤلفا ولا حامل قلم نشأ بالشام إلاّ وقد كانت له صلة بهذا المربي الأعظم واستفاد من عقله وسعة فضله، إما مباشرة أو بواسطة الذين استفادوا منه، وكل الذين جاهدوا هناك لأجل الحرية.

---

* باحث ومؤلف.

وفي سبيل المعارف، ولإحياء علوم السلف، ولإعادة مجد العروبة والإسلام، إنما كانوا من إخوانه، وهو واسطة عقدهم ورأس مجالسهم ومن طبقة تلاميذه، وهو مضرب الأمثال عندهم، في كمال عقله وسعة إطلاعه التي لا حد لها".

فمن هو هذا الشيخ ؟

إنه الشيخ الطاهر بن صالح بن موهوب السمعوني الوغليسي الزواوي، كان والده من تلامذة الشيخ المهدي السكلاوي اليارثني الزواوي، هاجر مع شيخه إلي الشام، بعد سقوط (القبائل السفلى) La Basse Kabylie في يد الاستدمار الفرنسي سنة 1847، وقد اخذ الشيخ صالح المذكور، العلم عن شيخه السكلاوي، وبعد وفاة هذا الأخير، حل محله في قيادة الإخوة المهاجرين، وأصبح هو شيخها وقائدها ومفتيها، وقد ولد له ولد بعد أربع سنوات من وصولهم إلي الشام، سماه شيخه السكلاوي (الطاهر) – والإخوان في المشرق يكتبونه (طاهر) لأن هذا الاسم قليل عندهم إن لم يكن معدوما، وقد كتب أبوه في حاشية أحد كتبه (طهره الله من رجس دنياه ودينه، وبارك في عمره، ورزقه العلم والعمل به)

كان والده الشيخ صالح، أول شيوخه، فأخذ عنه ما عنده من العلوم الشرعية واللغوية، ثم طرق أبواب المدارس، فالتحق بالمدرسة الجقمقية الإعدادية، فتتلمذ فيها، علي شيخين من أعظم علماء الشام أولهما: هو الأستاذ عبد الرحمن البستاني، وهو مربي شديد الشكيمة كما يصفه بذلك الأستاذ محمد كرد علي، فأكمل عنده العربية، وأخذ عنه الفارسية والتركية، ومبادئ العلوم، وثانيهما عالم الشام وشيخها آنذاك، العلامة عبد الغني الغنيمي الميداني – نسبة إلي الميدان أحد أعرق أحياء دمشق – وكان هذا الشيخ ذا عقل كبير

وعلم واسع ونظر شامل وكان فقيها عارفا بالكليات والجزئيات، مدركا لَلُباب الشريعة وأسرارها، كما كان مصلحا، يحارب البدع والضلالات والأوهام، ويستنكف عن الظهور في المجالس، ويبتعد عما كان يلجأ إليه بعضهم من التفصّح والتقعر؟ وكان نموذجا حيا من السلف الصالح في الزهد والتقي، وقد لازمه حتى وفاته، فطُبع الفتي بطابع شيخه، وأخذ منه الرجوع إلي المنابع الصافية، للشريعة الإسلامية، فكانت تلك أول خطوة لشيخنا، نحو السلفية، كما أخذ عنه محاربة المشعوذين والدجالين وأدعياء العلم والمتفقهين.

ولم تتوقف إرادة شيخنا عند العلوم التقليدية المعروفة أي الشرعية واللغوية، بل تعدى ذلك، شأنه شأن أستاذه، إلي العلوم الحديثة كالعلوم الطبيعية، والرياضيات، وعلوم الفلك، والآثار، يأخذها أنّى وأين وجدها، فكان يبحث عن مصادرها بشغف، وكان من شيمته أنه إذا سمع أو رأى من هو أعلم منه، في مادة ما وخاصة أولئك الذين درسوا هذه العلوم في الخارج، سارع إليه، ليأخذ ما عنده دون أي حرج، المهم عنده أن يستفيد من غيره، ويأخذ ما عنده. وما بلغ الثلاثين من عمره، حتى اكتمل نضجه، واتسع افقه، وتعددت معارفه، أحاط بعلوم زمانه التقليدية منها، والجديدة وأضحى موسوعة في اللغات، فزيادة عن لغتيه الأصليتين، العربية والأمازيغية أتقن الفارسية، ونظم بها الشعر كما نظم بالعربية، وتعلم التركية، والسريانية، والحبشية، وهذه اللغات لها علاقة وطيدة باللغة العربية والحضارة الإسلامية، وكتب وتكلم بالفرنسية، لغة المستعمر للجزائر وهو بهذا، يذكرني بابن منطقته، العالم المفكر مولود قاسم، الذي كان يتقن أكثر اللغات الأوروبية، وإلي جانب اللغات تعلم الشيخ ودرس الخطوط القديمة، حتى يستطيع أن يفك ألغاز المخطوطات القديمة.

كان شيخنا مغرما بالكتب منذ طفولته، وكان يشتريها مما يجود عليه والده من المصروف اليومي، فيأتي على قراءتها بنهم شديد، وبعد قراءتها يخبؤها، وقد قدر ما جمعه بهذه الطريقة حوالي ستة آلاف سفر، وجزء كبير منها من أندر المخطوطات، وكان يختار الجيد منها، فأكسبه ذلك معرفة كبيرة بالمؤلفين، وطبقاتهم، وتمكن من الوصول إلى أماكن هذه المخطوطات، وخزائنها، مما سهل له الحصول عليها، وكان شيخنا يتمتع بذاكرة عجيبة، مما جعل معاصروه يقولون عنه "إنه ما سمع شيئا أو قرأه إلا اختزنه في ذاكرته، فهو قليل الرجوع إلي ما قرأه من قبل وإنما همه أن يقرأ جديدا.

وقد كان هم هذا الشيخ، بعد أن اشتد عوده، وحوى في صدره ما شاء الله له، من العلوم والفنون، المختلفة الموضوعات، والمتعددة المشارب والمتنوعة المصادر، هو نشر التعليم وإحياء ماضي الأمة، فالتحق بالمدرسة الظاهرية، وفي خضم ذلك كله التقي ب (مدحت باشا) والي الشام وقد كان هذا الوالي عازما علي إصلاح ولايته ولن يتأتي له ذلك، إلا بنشر التعليم، فوجد في الشيخ بغيته، فمحضه ثقته، وسطر معه، ومع أمثاله برنامجا تعليميا واسعا، يرتكز أولا على محو الأمية، ثانيا التعليم الابتدائي فتأسست من أجل تطبيق ذلك جمعية أهلية دعيت (الجمعية الخيرية) أسسها بعض علماء دمشق ووجهائها، وكان الشيخ من أبرز مؤسسيها، وهي جمعية علمية ثقافية اجتماعية، فبدا أعضاؤها في الانتشار في الأوساط الاجتماعية لتنبيه الناس وتوعيتهم، وخاصة في أوساط الشباب، بالإقبال علي التعليم للنهوض بالوطن، وكان شيخنا من أنشطهم وأكثرهم تأثيرا، وأقواهم حجة، وتم أنشاء عدد من المدارس في شهور قليلة، ومما يلفت الانتباه أن من بين المدارس، التي أنشأتها الجمعية، مدرستان

للإناث، وهي سابقة لم تكن معهودة من قبل، وقد تحولت الجمعية بعد أن تعدد نشاطها، وعم مختلف المراحل التعليمية، إلى ديوان: المعارف: وهو ما يوازي وزارة المعارف، فضاعف هذا الديوان من نشاطه، بعد أن أصبح هيئة حكومية، فتعددت مشاريعه التعليمية، وكان شيخنا، هو المؤسس وهو الموجه وهو المنشط، باختصار كان الكل في الكل، في كل ما يتعلق بالتعليم، فكوفئ عن كل ذلك، بتعيينه مفتشا عاما للتعليم، أي ما يوازي حاليا وزير التربية، فبذل مجهودا أكبر، وأوسع، وأشمل، ليس في إنشاء المدارس فقط، وإنما كذلك في أصلاح التعليم، وتتبع المعلمين، بتوجيههم، وإرشادهم وإسداء النصح لهم، والاستماع إلي مقترحاتهم، وآرائهم، في الأساليب التي يجب أن تتبع لترغيب الطلاب في طلب العلم، بل تعدى ذلك، إلى تحفيز الآباء وحملهم على إرسال أبنائهم إلي المدارس، وخاصة الأغنياء منهم لأن عندهم المال والجاه، فتأثيرهم في المجتمع أكبر. "ومن آرائه الجريئة في زمانه، هو دعوته إلي تثقيف العامة" لأنهم أطوع للحق، من الكثيرين المنتفعين بالدين، خاصة إذا تتبع المصلح الحكمة في دعواهم، وأعطاهم من العلم ما تطيقه عقولهم". ومن التوصيات الهامة التي أوصي بها المعلمين خاصة، والمثقفين بصفة عامة، هو أن يتعلموا مع العلم، صنعة أخري، فيقول "تعلموا العلم وتعلموا معه صناعة تعيشون بها، حتى لا تقفوا علي أبواب السلطان تستنجدون الوظائف والجرايات، فإذا احتاجت الحكومة إليكم أخذتكم لخدمتها، واعملوا بالنزاهة والاستقامة، واخلصوا لها وللأمة القصد".

ولقد شغل نفسه بميدان آخر لا يقل أهمية من ميدان التعليم وهو جمع المخطوطات، أو بالأحرى ما تبقى منها في مساجد دمشق ومدارسها العشر، والتي لم تصل إليها بعدُ أيادي أكلة الأوقاف وسارقي الكتب، وأدعياء العلم، والذين حاربوه محاربة شديدة وصلت إلي تهديده بالقتل، إن لم يتوقف عن عمله ذاك، وقد حدثني الأديب الشاعر المؤرخ الدمشقي الأستاذ محمد مفتي أن الشيخ اهتدي إلى وسيلة لنقل المخطوطات لا تثير الشك، ولا ينتبه إليها وهي الدواب السخرة لنقل النفايات المنزلية، والحقيقة أن الشيخ لم تزعزعه تلك التهديدات، ولم تثن من عزمه، بل أكسبته قوة وإصرارا، وبعثت فيه روح التحدي فشمل بنشاطه ذاك مختلف الدن السورية فتمكن من إنشاء مكتبة عامة من أهم المكتبات في العالم العربي، وهي المكتبة الظاهرية في دمشق، التي يحج إليها سنويا عشرات من العلماء الباحثين من البلاد العربية ومن مختلف أنحاء العالم، وتعتبر هذه المكتبة ثروة كبري تمتلكها دمشق وتفخر بها. ثم اتجه صوب القدس الشريف، فأسس فيه مكتبة وطنية، دعيت باسم مكتبة الخالدي، وآل الخالدي عائلة عريقة في القدس، عرفت بالعلم والعلماء، وقد كان الحجر الأساسي لهذه المكتبة، هي خزائن مكتبة الشيخ راغب الخالدي، ثم خزائن بقية الأسرة، ومخطوطات، وكتب قيمة أخري، من بقية أسر القدس الشريف. وقد أمده عمله في تأسيس المكتبتين، بروافد من العلوم، في مختلف الميادين، وقد سبق أن ذكرنا، بأن شيخنا يتمتع بذاكرة فريدة، فأصبح دائرة معارف بالحق، فوعي صدره مختلف العلوم الشرعية وتاريخ الأمم، والملل والنحل، وتاريخ الإسلام ورجاله، كما كان محاورا فذا ومجادلا بارعا، ومناظرا لا مثيل له،كما كان إماما في العربية وآدابها وشاعرا لا بأس به، وينظم بالفارسية،كما ينظم

بالعربية، ويقول عنه تلميذه الأستاذ محمد كرد علي "إن شعره أجود من شعر الفقهاء، وأقل جودة من شعر الشعراء. وقد قال عنه الأمير مصطفي الشهابي "في تلك الأيام التي قضاها الشيخ بالشام، كان يتحلق حوله صفوة من العلماء والمفكرين العرب، فتألفت منهم أكبر حلقة أدبية وثقافية، كانت تدعو إلي تعليم العلوم العصرية، ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي، وآداب اللغة العربية، والتمسك لمحاسن الأخلاق الدينية، والأخذ بالصالح من المدنية الغربية"، ومن هؤلاء الشيخ عبد الرزاق البيطار وهو أسنهم، جد العلامة الشيخ بهجت البيطار ومؤلف كتاب "حلية البشر في القرن الثلث عشر"والعلامة جمال الدين القاسمي، صاحب كتاب "محاسن التأويل" ومن الشبان، المحقق الكبير محب الدين الخطيب، ورفيق العظم، والسياسي السوري المعروف الدكتور شهبندر والشيخ محمد سعيد الباني، الذي ألف ترجمة شيخه بعنوان "تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر ويصفه بأنه" جمع بين المعقول والمنقول، ومزج القديم بالحديث، أخذ من كل علم لُبابه ونبذ لفاظته، فكنت تجد منه العالم الديني، والمدني، والرياضي، والطبيعي والسياسي، والأديب، والمؤرخ، والأثري، والاجتماعي، والأخلاقي والكاتب، والشاعر، فكان عنده من كل علم خبر، فهو دائرة معارف، ومفتاح العلوم، وكشاف مصطلحات الفنون، وقاموس الإعلام".

كان شيخنا زيادة على ما ذكره تلميذه، مجتهدا سلفيا، لم يتقيد بمذهب واحد، يأخذ الأحكام من أصول الشريعة، ويحسن الظن بجميع المذاهب، ويعادي كل من يحاول أن ينال من أحد الأئمة، ونجده في بعض الأحيان يؤيد أهل الاعتزال، والشيعة، والإباضية، في مسائل تفردوا فيها، وله الفضل في إعادة الاعتبار لشيخ الإسلام ابن تيمية، إذ كان اسمه وكتبه من المحرمات في الشام لقرون إلى أن تمكن

هو من إقناع الناس والحكام معا، لإحلال ابن تيمية المقام الذي هو أهل له، وكان الشيخ، يلقي باللائمة على الفقهاء، الجامدين المتعصبين، الذين يحاربون الحكمة، والعلوم العصرية، وأغلقوا باب الاجتهاد، ويراهم حجر عثرة في النهوض بالأمة الإسلامية، وكذلك، هاجم من يمكن أن نسميهم بعلماء القصور، المتزلفين للحكام، ذوو الفتاوي الجاهزة، حسب الطلب، وذلك ما نجده في برقية التعزية التي بعث بها أحد أصدقائه في مصر، وهو العلامة أحمد زكي باشا، إذ يقول "كنت أري فيه الأثر الباقي، والمثل الحي، والصورة الناطقة، لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية، في كل المعارف الإسلامية وتوسيع نطاقها بقبول ما تجدد عند الأمم".

ومن صفاته المشهور بها التسامح فهو ينبذ التعصب ويحاربه ليس فقط فيما بين مختلف الطوائف الإسلامية ومذاهبها، وإنما تجاوز ذلك إلى الديانتين السماويتين، الأخريين، فكان له أصدقاء من علمائها، ورجال الدين فيهما، ومن أبرز أصدقائه، بل من تلامذته، المستشرق المجري اليهودي **Goldziher** وكان يقول "هم أقرب الناس إلينا، يؤمنون بالله واليوم الآخر مثلنا "وهذا القول هو الذي ذهب إليه السيد قطب، رحمه الله في كتابه في "ظلال القرآن"عند تفسيره لقول الله تعالي في سورة آل عمران ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ (آل عمران، الآية 64) ومن مظاهر هذا التسامح، أنه قال وهو علي فراش الموت، "عدوا رجالكم، اغفروا لهم بعض زلاتهم، وعضوا عليهم بالنواجد لتستفيد الأمة منهم ولا تنفروهم، لئلا يزهدوا في خدمتكم". وقد رُزئ شيخنا بخطب جليل، بشيء لم يكن ينتظره، وقد يكون ينتظره، وهو إقصاء الوالي

مدحت باشا، والزّج به في السجن، وقد كان الركيزة، التي يرتكز عليها، والسند، الذي يسنده في مشاريعه، وقد أعفي الشيخ مباشرة من مهامه، كمفتش عام للتعليم، وعُرضت عليه وظيفة أخري تحجبه عن الناس، فرفضها، ولزم بيته. كانت هذه مناسبة لأولئك الذين حاربوه من قبل، حربا شعواء، من علماء عصره، أولئك الذين أرهقتهم أفكاره وأتعبهم سلوكه معهم، وسعيه الحثيث لإحياء علوم الشريعة والأخذ بعلوم الدنيا، أن يعلنوها من جديد، وما لأهم بعض الساسة والحكام، لأنه لم يخف كرهه لحكام، العثمانيين والاستعمار عامة، وهو يسمي الحكم العثماني بالاستعمار وقال"إن استيلاء الترك علي بلاد العرب، أخرها وأنزل من قيمتها وغير من أخلاقها " فاضطر للهجرة إلي مصر سنة 1907 ومكث فيها إلى غاية 1920، وقد بث أفكاره، وكون مجموعة من التلاميذ الذين أخذوا بمذهبه في الإصلاح وفي الرجوع إلي المنابع الصافية للشريعة الإسلامية، ومن أهمهم، العالم المحقق محب الدين الخطيب الذي أشرنا إليه سابقا، ومن أصدقائه بمصر، الإمام محمد عبده، والسيد رشيد رضا، وأحمد تيمور باشا، وأحمد الحسيني، وأحمد زكي باشا، والشيخ علي يوسف، وغيرهم، وفي مصر كان الاتصال الأول للشيخ بأبناء وطنه الجزائر، فتعرف بعدد منهم،ربما كان أشهرهم الشيخ محمد الخضر حسين، الذي اعتلى سدة مشيخة الأزهر، ومن هؤلاء أيضا أبي يعلي الزواوي، وهو الذي طلب منه أن يؤلف كتاب (تاريخ زواوة) ووضع مقدمته، وحفّزه لقاؤه بأبناء وطنه علي القيام بزيارته في سنة 1912، ونزل ضيفا علي الشيخ محمد السعيد بن زكري، المفتي المالكي بالجزائر، وبن زكري، هو الذي استضاف كذلك، بعد ذلك الإمام محمد عبده عند ما زار الجزائر.

مميزات الشيخ :

للشيخ طاهر عدة مميزات تميزه عن غيره من علماء زمانه، وتجعل منه شخصية فريدة لا يشبه أحدا ولا يشبهه ،أحد فهو مقل المعادن الثمينة النادرة، ومن هذه المميزات ما أشرنا إليه آنفا من التسامح ورحابة الصدر وسعة الأفق تجاه المخالفين في الرأي من بني ملته وإنما تجاه أتباع الديانات والعقائد الأخرى. ومن أهم مميزاته ألأنفة وعزة النفس، فالدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة كما يقول تلميذه محب الدين الخطيب، فهو أبعد الناس من أبواب الحكام والأغنياء، إذ لم يمد يده لأحد طوال حياته، ولم يأخذ فلسا من ملك أو حاكم أو غني، وفي هذا يقول أحمد الجندي، رئيس دائرة في المجمع العلمي العربي بدمشق، في محاضرة ألقاها سنة 1969: كان هذا الرجل يحب العرب ويعطف علي قضيتهم ويسعى إلي تقدمهم وتعليمهم، وأبرز ما كان عند الشيخ هي حافظته العجيبة، ثم قال، لجأ الشيخ إلي حافظته، فاتخذها وسيلة للعيش، عيش كفاف يستعين بها علي الحياة، فكان يشتري المخطوطات بأثمان زهيدة، فيبيعها فيربح بها دريهمات، تساعده على الإنفاق، وكانت نفسه تأبى أن يمد يده لأحد، مهما تكن منزلته، حتى كان العظماء في زمنه يرهبون أن يعرضوا عليه العون المادي، فإذا فعلوا كان ذلك إيذانا بالفرقة التي لا لقاء بعدها: أما الأستاذ محمد كرد علي فيقول "لا أكون مبالغا إذا قلت إن عزة النفس هو الخلق الذي ندر في علماء المسلمين لعهدنا، لما تفرد به، ففيه إباء الملك والزهاد والعباد، لم يظاهر ظالما لغنم يصيبه، ولم يصاحب غنيا للانتفاع بغناه، وكان يؤثر الخمول وعدم الظهور، ولاتهمه الشهرة، استفاضت أم لم تستفض". وشيخنا لم يتخذ زوجا في حياته، وبالتالي لم يكن له ولد، فعمره كله للعلم والتعليم، أولا، وثانيا، وثالثا، ولا يشغله أي شيء آخر عن ذلك، وفي هذا يقول (الأب لويس

شيخو) في كتابه (تاريخ الآداب العربية) (كان الشيخ طاهر، أحد الأدباء القليلين في الإسلام، الذين فضلوا عيشة العزوبية، ليتفرغوا لدرس العلم) وتروى عنه نكتة، قيل أن مجموعة الأصحاب، أرادوا إحراجه، فبعثوا أحدهم ليسأله عن (القُبلة) فأجابه الشيخ بقوله "اسأل عنها غيري فأنا لا أعرفها.

أما موضوع الهندام، والأناقة، فحدث ولا حرج، فالشيخ ليس له أهل فإذا ليس له من يعتني بأثوابه، غسلا وكيا،ولهذا سلك الطريق الأسهل وهو لبس ثوبين في آن واحد، فإذا اتسخ الأول رماه، واشترى جديدا بدله، وهكذا، وقد حاول أحد أصدقائه في بيروت، وفي غفلة منه أن يغسل له الثوب المتسخ، فأبى وأصر على رميه، وقد حدثني أحد شيوخ الجزائريين، في دمشق وقد عاصره وجاوره فترة من الزمن، بأن هيأته تنفر منه في بعض الأحيان، حتى يُظن أنه أحد الدراويش. وفي مقال طويل، للمرحوم الشيخ علي طنطاوي، في مجلة الرسالة عدد 676، التي كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات في القاهرة في النصف الأول من القرن العشرين، ومما جاء فيه، رواية عن الشيخ قاسم القاسمي "أن شيخ الشام ومربي الجيل، طاهر الجزائري احتال عليه أصحابه واشتروا له جبة جديدة، وألبسوه إياها وذهبوا به إلي دمر – ودمر أحد منتجعات دمشق – فجلسوا حول البركة العظيمة، في منزل الأمير عمر وكان في المجلس الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ جمال الدين القاسمي، وجلة من العلماء، فما كان من الشيخ إلا أن قام ونزع جبته، وجعل يغمسها في التراب، ثم يغسلها ثم علقها على غصن حتى جفت، ثم لبسها، وقال الآن استرحت لأن الجبة الجديدة تشغل صاحبها، أما القديمة فلا يبالي بها صاحبها. وشيخنا مولع بالتدخين، وقد نصحه الأطباء علي الإقلاع عنه لأنه مريض بالربو فلم يفلحوا، كما أنه كان رياضيا بمعني الكلمة،

فهو مغرم بالسباحة يمارسها يوميا أينما حل خارج دمشق، ولا يتخلف عنها أبدا، أما في دمشق فله مسبح خاص به،كما أنه يعشق المشي، ويتنقل من قرية إلى أخرى ويقطع عشرات الكيلومترات يوميا.

آثاره

قد يكون الشيخ الطاهر، من أكثر العلماء في العصر الحديث كتابة، وتأليفا، فعدد كتبه تعد بالعشرات، طبع منها عدد لا بأس به، والباقي لما يزل مخزونا في أدراج المكتبة الظاهرية بدمشق، أو دار الكتب المصرية بالقاهرة، وقد قال بعضهم ومنهم تلميذه الوفي، محمد كرد علي، أن مؤلفات الشيخ، لا تتناسب كل التناسب مع علمه الواسع، والحقيقة في نظري أن تآليف الشيخ، تتمثل في نموذجين، الأول يشمل تلك الكتب، التي ألفها خصيصا لطلبة المدارس التي أنشأها، والتي كان يشرف عليها، فهذه الكتب طبعا ذات مستوى بسيط ويجب أن تكون كذلك، وهي بميزان النقد المجرد، لا تتلاءم بالفعل مع مستواه العلمي.

من هذه الكتب :

1. مد الراحة إلي أخذ المساحة.
2. مد الراحة لأخذ المساحة.
3. الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام.
4. إرشاد الألباء إلي طريق الألف باء.
5. الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية.
6. منية الأذكياء في قصص الأنبياء.
7. مبتدأ الخبر من مبادئ علم الأثر.
8. تمهيد العُروض في فن العروض.
9. أشهر الأمثال.

10. رسائل في علم الخط.
11. الحكم المنثورة.
12. دائرة في معرفة الأوقات والأيام.
13. مدخل الطلاب إلى فن الحساب.

إلى آخر ذلك من مثل هذه المؤلفات، ولكن مهما قيل من أن هذه المؤلفات، لا تتفق والمستوي العلمي،للشيخ الطاهر، فإن ذلك لا ينقص من قيمتها العلمية ولا ينال من مكانة الشيخ، بل على العكس من ذلك فهي تدل علي عبقرية الشيخ، ليس كعالم فقط، وإنما كمرب، وهذا ما وضحه الشيخ رشيد رضا، في تقرضيه لبعض تلك الكتب، من ذلك قوله في كتاب (الجواهر الكلامية في العقيدة الإسلامية) "إن الشيخ الطاهر الجزائري، ألف عقيدة مختصرة، لتلاميذ المدارس، أيام كان مفتش معارف ولاية سوريا، تحرى فيها السهولة، وجعلها أسئلة وأجوبة، فكانت أمثل المختصرات، للتلاميذ المبتدئين، فيها ما لا يوجد في غيرها من العقائد كبيان اعتقاد المسلمين في التوراة والإنجيل والزبور، الموجودة الآن، وليست هي المذكورة في القرآن، ثم لما رأى في هذه السنة إقبال المدارس على عقيدته، نقحها وألف رسالة أخرى سماها (الجوهرة الوسطى) سلك فيها مسلكا لطيفا في التّبصرة والاستدلال، ينبغي أن يختص بتلاميذ المدارس الثانية، والعالية، فننصح لمدارس مصر الأهلية، أن تقرأ هذه العقيدة في مدارسها: (مجلة المنار عدد 5 ص 914). وفي تقريضه لكتاب (إرشاد الألباء إلي طريق تعليم ألف باء) يقول الشيخ رشيد رضا "في أيدي الناس، ألوف من الكتب المؤلفة في العلوم والفنون، ولكن أكثرها متشابه، إن بعضها منقول من بعض مع اختصار مخل، أو غير مخل، وزيادة ضارة أو نافعة، سواء كان التقليد متقنا أو غير متقن، فهو ليس من العلم في شيء...ثم يقول أمامنا الآن

كتاب (إرشاد الألباء لتعليم ألف باء) الذي وضعه حديثا الشيخ طاهر الجزائري، فقد سلك فيه مسلكا في الاجتهاد لم يخرج فيه عما قاله أئمة اللغة، ولكنه أحسن الاختيار والتصرف، فقرب البعيد، وسهل الصعب الجامح ،.. إلى أن يقول فلا يتوهمن أحد أن هذا الكتاب لا ينتفع به إلا معلم الكُتاب، كلا إنه كتاب لا يستغني عنه معلم عربي، مهما علت منزلته في العلم، وإننا نود أن يطلع عليه جميع علماء الأزهر، وعسى أن ينتبه إلى ذلك، شيخ الأزهر (مجلة المنار عدد 8 ص 521) أظن أن كلام الشيخ رشيد رضا جلي وواضح ولا يحتاج إلى تعليق. ننتقل الآن إلي النموذج الثاني، من مؤلفات الشيخ، التي تدل علي غزارة علمه، وعمق فكره، وسعة أفقه، واطلاعه الواسع الذي لا حد له، وعلو كعبه في مختلف العلوم والفنون، علوم الأصلين، وعلوم الشريعة، وعلوم العربية، حتى العلوم العقلية من حساب وطبيعة..الخ فهو فارس لا يجارى وقمة لا تُتطاول، ومؤلفاته في هذا النموذج التي سنتعرض بالحديث لبعضها، هي مؤلفات موسوعية، تمتاز بالعمق والجدية، والإحاطة، والشمولية، وتعتبر إلي اليوم من أهم المراجع للباحثين، في ميدانها، ومن أهمها :

1. التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن علي طريق الإتقان، وهو مؤلف جامع، في 300 صفحة، إنه كتاب كما يدل عنوانه يبحث في علوم القرآن، فرغ من تأليفه سنة 1335هـ وطبع في مطبعة (المنار) سنة بعد ذلك، ثم حققه وأعاد طبعه الدكتور عبد الفتاح أبو غدة، سنة 1412هـ، ويقول، إن هذا الكتاب هو المقدمة الصغرى لتفسيره الذي لا يزال مخطوطا، في المكتبة الظاهرية بدمشق، وبخط الشيخ نفسه، وهو في أربع مجلدات، والشيخ كما يقول المؤرخون، في مقدمة المحدَثين، مع العلامة جمال الدين القاسمي، في كتابه (محاسن التأويل) اللذان طرقا هذا الباب بالتأليف، وهو آخر كتاب ألفه الشيخ، ولسنا

في حاجة إلى التأكيد، بأنه كتاب، في غاية الأهمية في بابه، وقد سلك فيه أسلوب المؤلفات الجامعة، ويظهر أثر السيوطي فيه جليا، وقد حوى أكثر أنواع علوم القرآن، وهو العمدة والمرجع الأساسي للذين جاءوا من بعده، ونلمس ذلك عند عبد الحق عبد الدايم، في تحقيقه لكتاب "جمال القراء وإكمال القرآت" لشيخ الإقراء بالشام علم الدين السخاوي، وكذلك في كتاب "المدخل لدراسة القرآن الكريم" لمحمد أبو شهبة، وأيضا عند الدكتور صبحي الصالح، في كتابه "مباحث في علوم القرآن". وسأحاول أن أعرج على بعض الآراء، التي وردت في هذا السفر الجليل، منها تعداده لأكثر من تسعين اسما، للقرآن، استخرجها من صفاته كما وردت فيه، ومن أقواله" اعلم أن المشتغلين بالقرآت وتوجيهها، يلوح لهم من خصائص اللغة العربية، ودلائل إعجاز الكتاب العزيز، ما لا يلوح لغيرهم، ويحصل لهم من البهجة ما يعجز اللسان على بيانه.

ومن آرائه الأصولية التي وردت في هذا الكتاب في تفاوت العدالة والضبط يقول " قد ظن بعض الناس، أن العدالة على مذهب الجمهور، لا تقبل الزيادة والنقصان، فهي كالإيمان عند من يقول بعدم قبول ذلك، والصحيح أن العدالة، كالضبط تقبل الزيادة والنقصان والقوة، والضعف، وقد أشار إلى ذلك، علماء الأصول، في باب الترجيح في الأخبار، ثم قال قد زعم بعضهم عدم تفاوت الضبط أيضا، ورد عليه بعضهم، بقوله لاشك من تحقق تفاوت مراتب العدالة، والضبط، في العدول، وقد وضح ذلك حتى صار كالبديهي، ويقول، في الأخير وقفت على عبارة للحافظ، أبي محمد علي بن أحمد بن حزم، الظاهري، خالف فيه الجمهور بترجيح الأعدل علي العدل".

ومن أقواله التي أثارت الانتباه، حيّز (المروءة) في حد العدالة فقال "قد اعترض بعض العلماء على إدخال المروءة في حد العدالة لأن جلها، يرجع إلى مراعاة العادات الجارية، بين الناس، وهي مختلفة باختلاف الأمكنة والأزمنة، والأجناس، وقد يدخل في المروءة عرفا، ما لا يستحسن شرعا في الشرع، ولا يقتضيه الطبع".

2. توجيه النظر إلي علم الأثر، طبع سنة 1328 هـ وعلم الأثر، الوارد في العنوان، هو آثار رسول الله صلي الله عليه وسلم، أي السنة النبوية، "والسنة تنطلق على الأكثر على ما أضيف إلي النبي من قول أو فعل أو تقرير فهي مرادفة للحديث عند علماء الأصول" وهو كتاب لا يقل أهمية، عن الكتاب الأول، المذكور آنفا، وكان المرجع الأول، لكل من ألف بعده في علوم الحديث، ويقول الشيخ رشيد رضا" إن الشيخ طاهر، كثير الاطلاع على الكتب، وهو ولوع بالاستقصاء والبحث، ولهذا جاء كتابه طويلا، ولكنه قاصرا على ذكر المسائل الخاصة بمصطلح الحديث، وكتب المحدّثين، ووفي حقها من الاستقصاء "وفي مقال آخر، أجرى الشيخ رشيد رضا، مقارنة بين الشيخين الجزائري والقاسمي في كتابيهما" قواعد التحديث للأول و"توجيه النظر" للثاني، فقال "إن الجزائري والقاسمي كانا سيان في سعة الاطلاع، وحسن الاختيار، إلا أن الجزائري، أكثر اطلاعا على الكتب، ولوعا بالاستقصاء والبحث، والقاسمي أشد تحريا للإصلاح وعناية بما ينفع جماهير الناس، ومن ثم كان كتاب الجزائري وهو أطول، قاصرا علي المسائل الخاصة بالحديث وكتب المحدّثين، التي قل ما ينتفع بها إلاّ المشتغلين بهذا العلم، فقد وفي بعض مسائلها حقه من الاستقصاء، بما لم يفعله القاسمي".

وقد حوى هذا الكتاب من الأقوال والآراء الطريفة، في علوم الحديث، وفي أصحاب الصحاح، والمسانד، وفي السيرة النبوية وأصول

الفقه، وغيرها، ما لا نجده في غيره، وسأحاول أن أشير إلى بعض منها باختصار.

وأول حقيقة علمية نأخذها من هذا الكتاب، هي أن الخليفة عمر عبد العزيز، هو أول من أمر بتدوين الحديث، استنادا إلى حديث رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب (العلم) " وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: "انظر ما كان من حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء"، وأبو بكر هذا، هو نائب الخليفة في القضاء، والإمارة، بالمدينة وهو من كبار العلماء، ومن رواة الحديث، وقد أخذ عنه كثير من علماء زمانه، ومن هؤلاء الأوزاعي، ومالك، والليث، وابن إسحاق، ويقول عنه مالك "ليس هناك من هو أعلم منه بالقضاء". الحقيقة الثانية، هو تفريقه بين كتب السنن، والمساند، فقال "وأما كتب المساند فهي دون كتب السنن في الرتبة"، وكتب المساند ما أفرد فيه حديث كل صحابي علي حدة، من غير نظر للأبواب، وقد جرت عادة مصنفيها أن يجمعوا في مسند كل صحابي، ما يقع لهم من حديثه، صحيحا كان أو غيره، ولذلك لا يسوغ الاحتجاج بما يورد فيها مطلقا. وقد تناول الشيخ الطاهر بالبحث قضية اختلاف الرواة في الحديث الواحد إما بالتقديم أو بالتأخير، أو بالزيادة أو النقصان، فقال "إن المقصود بالحديث هو المعنى، ولا يتعلق في الغالب حكم بالمبني، بخلاف القرآن، فإن لألفاظه مدخلا في الإعجاز، فلا يجوز إبدال لفظ منه بلفظ آخر، ولو كان مرادفا له، خشية النسيان مع طول الزمن، فوجب أن يقيد بالكتابة ولا يُكتفي فيه بالحفظ". كما تحدث بالتفصيل في تنوع اهتمامات أهل الحديث فمنهم من قصر جهده ونظره إلى الإسناد، ومنهم من اهتم بالمتن فقط، ومنهم من حاول الجمع بين الحسنيين، ولهذا قسم الشيخ أهل الحديث "إلي ثلاث طوائف :

أ- طائفة تقصر نظرها على الإسناد، فإذا كان خلوا مما يقدح في اتصاله وثقة رواته حكم بصحته، دون النظر إلي متنه، مع أن القاعدة عند أهل الصنعة صحة الإسناد لا تلزم بصحة المتن.

ب- طائفة قصرت نظرها على المتن فإن وافق ذوقها ومنحاها العقلي حكمت بصحته، وإن كان في الإسناد علة قادحة توجب الرد، مع أن كثيرا من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، صحيحة من جهة معناها ومبناها، ومع ذلك لا يصح رفعها إلي النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها ليست من كلامه وإنما هو كلام حكيم، أو واعظ مزهد، أو مرغب، أو فقيه لنصرة المذهب،

ج- وفقت في نقدها الحديثي بين المتن والسند، فوفت كل جانب حقه من البحث والنظر، فلا تتعجل بتوهيم الراوي لشبهة عرضت في المتن ولا تنزهه في الوقت ذاته عن الخطإ والنسيان والغفلة".

وكما أشرت من قبل من أن كتاب "توجيه النظر" وإن كان موضوعه الأصلي، هو علوم الحديث، ولكنه شمل علوما أخرى لها علاقة بعلوم الحديث، مثل السيرة، والتفسير، والأصول خاصة، لتدل دلالة واضحة، على غزارة علم الشيخ، وشموليته، وعمقه، وفهمه للنصوص، مما جعله يتصدى بالنقد لكثير من آراء سابقيه، وسأذكر كمثال، نصين انتقد فيهما موقف بعض الأصوليين، الأول يقول فيه "قد وقع في كتب أصول الفقه، مسائل كثيرة مبنية على مجرد الفرض، وهي ليست داخلة فيه، وكثيرا ما أوجبت حيرة المطالع النبيه حيث يطلب لها أمثلة، فيرجع بعد الجد والاجتهاد، ولم يُحظ بمثال واحد، فينبغي الانتباه لهذا الأمر، ولما ذكره بعض العلماء وهو أن كل مسألة تذكر في أصول الفقه، ولا ينبني عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عونا على ذلك، فهي غير داخلة في أصول الفقه،

وذلك أن هذا العلم، لم يختص بالإضافة إلى الفقه، إلاّ لكونه مفيدا ومحققا له وذكر لذلك أمثلة، أتى بها المتأخرون، كمسألة ابتداء اللغات، ومسألة الإباحة هل هي تكليف أم لا... الخ.

المثال الثاني، يتعلق بأصول التفسير، فيقول "قد يحكى عن التابعين عبارات مختلفة، فيظن من لا فهم عنده أن ذلك اختلاف محقق ويحكيه أقوالا، وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى من معاني الآية، لكونه أظهر عنده أو أليق بحال السائل، وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بثمرته ومقصوده والكل يؤول إلى معنى واحد في الغالب". وقبل أن أنهي الكلام علي مؤلفه "توجيه النظر" أود أن أسجل رأيه أولا: في ترتيب الصحاح الست، إذ يقول "ولما كان ابن ماجه، قد أخرج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب، وسرقة الأحاديث، قال بعضهم، ينبغي أن يُجعل السادس كتاب الدارمي، فإنه قليل الرجال الضعفاء، نادر الأحاديث المنكرة والشاذة". ثانيا رأيه في صحيح مسلم، فهو معجب به أشد الإعجاب، يقول "من ذلك ترتيبه للأحاديث، علي نسق يشعر بكمال معرفته بدقائق هذا العلم، ووقوفه على أسراره، وهذا أمر لا يشعر به إلا من أمعن النظر في كتابه، مع معرفته بأنواع العلوم، التي يفتقر إليها صاحب الصناعة، كأصول الدين، وأصول الفقه، وأصول التفسير، والفقه، وعلوم العربية، وأسماء الرجال، ودقائق علم الإسناد، والتاريخ، مع الذكاء المفرط، وجودة الفكر، ومداومة الاشتغال به، متحريا للإنصاف قاصدا للاستفادة والإفادة".

3. التقريب إلي أصول التعريب وهو كتاب في علوم اللغة، موجه للدارسين وللمختصين وقد ألمّ بكل الجوانب العلمية، التي تعترض سبيل الدارسين، من نحو وصرف كما يقول صلاح الدين الزعبلاوي في كتابه "دراسات في النحو" وكذلك "مجلة مجمع اللغة العربية" في العددين

57 و62 وسأذكر نصين فقط، من هذا الكتاب للاستئناس بهما "يقول، قد يكون اللفظ معزوا إلى لغة أجنبية غير سامية، كالفارسية واليونانية، أو سواهما، ومن ثم كان لابد من الحكم على انتماء اللفظ قبل التماس اشتقاقه ورده إلي أرومته، مثال ذلك لفظ الإبريق، وهو من الكلمات التي لم يفصل فيها، هل هي عربية، أم دخيلة، من أصل فارسي أو يوناني ؟ انظر إلي لفظ الإبريق مثلا، فإنه إن كان اسما للسيف البراق، يكون له اشتقاق، لأنه يكون عربيا محضا، واشتقاقه من البريق، والهمزة فيه زائدة، ووزنه إفعيل، وإن كان اسما للإناء المعروف، لا يكون له اشتقاق، لأنه يكون معربا، والهمزة فيه أصلية ووزنه فعليل" .

النص الثاني نستعرض فيه تعريف الشيخ الطاهر للتعريب، يقول "التعريب نقل الكلمة من العجمية إلي العربية، والمعرب في الكلمة هي التي تنقل من العجمية إلى العربية، سواء وقع فيها تغيير أم لا، لكنه لا يتأتى في التعريب غالبا إلا بعد تغيير الكلمة".

وللشيخ كتب أخري لا تقل أهمية من المذكورة، إن لم تفقها، من هذه الكتب، تفسيره الكبير، في أربع مجلدات، لا يزال مخطوطا في خزائن المكتبة الظاهرية، بدمشق، وقد وضع له الشيخ مقدمتان الصغرى، والكبرى، والصغرى هي التي طبعت في كتاب مستقل تحت عنوان "التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن عن طريق الإتقان" الذي سبق الكلام عليه، وله كتاب "مقاصد الشرع" والإلمام بسيرة النبي عليه السلام"، ومعجم ضاع أكثره، ورسائل ابن المقفع، كما عالج كثيرا من أمهات كتب الأدب العربي بالشرح أو الاختصار، مثل "أدب الكاتب" لابن قتيبة، "وأمثال الميداني "والبيان والتبيين" للجاحظ" و"ديوان خطب ابن نباتة المصري" و"أمنية الألمعي وبغية المدعي" لابن الزبير الغساني، ولعل أهم إرث علمي تركه الشيخ، ولما يزل ينام في الأدراج ،هما التذكرتان.

1. **التذكرة الطاهرية** : الموجودة بدار الكتب المصرية وتضم مجموعة الرسائل وأوراق الشيخ في الفترة المصرية في حياته جمعها صديقه العلامة أحمد تيمور باشا، في عدة أجزاء، وقد أشار إليها خير الدين الزركلي في أعلامه ج294/8.

2. **التذكرة الطاهرية** : الموجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق يفوق عدد مجلداتها عشرا، وما تزال مخطوطة إلى اليوم وقد استعرض الأستاذ (حازم زكريا محي الدين) في كتابه "الطاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام" صدر في 2001 عن دار القلم بدمشق، أهم ما في هذه التذكرة.

وفاته

بعد أن استفحل فيه مرض الربو في مصر، قفل عائدا إلى الشام، في سنة 1919، وقد تغير الحكم، وانتهى عهد الخلافة العثمانية، وأحدثت الدولة العربية في سوريا، فعين مديرا للمكتبة الظاهرية التي أنشاها من قبل، كما عين عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق، ولكن المرض قد اشتد به، وبرح به الألم، إلي درجة أنه طلب من طبيبه أن يعطيه دواء ليميته في الحال، وقال له إن الشرع يبيح ذلك، فأطلق الطبيب عنان رجليه، وأقسم ألا يعود لتمريض الشيخ. وانتقل إلي رحمة الله، ذلك الذي لم تكن له أمنية في هذه الدنيا إلا أن يرى عز الإسلام كما كان، وتوفي يوم الخميس 5 جانفي 1920، ودفن في مقبرة ذي الكفل على سفح جبل قاسيون، حيث دفن والده وشيخ والده، وغالبية الجزائريين الذين هاجروا إلي الشام. فرحم الله شيخنا وجزاه عن الإسلام والعروبة خير الجزاء.

المراجع

1- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن عن طريق الإتقان.

2- توجيه النظر إلى علم الأثر.

3- الشيخ الطاهر الجزائري: محاضرة للأستاذ محمد كرد علي، نشرتها (الشهاب) في عددها الصادر في محرم 1348 هـ.

4- بحوث ودراسات في اللهجات العربية: مجمع اللغة العربية في القاهرة ج7/18.

5- محاضرات في علم القرآن: غانم قدوري ج11/1.

6- الموسوعة القرآنية المتخصصة: المجلس الأعلي للشؤون الإسلامية، القاهرة.

7- موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية : محمد بن عبد الرحمن المغراوي ج 192/9.

8- أصول الفقه على منهج أهل الحديث: زكريا بن غلام قادر الباكستاني

9- الموازنة بين المتقدمين والمتأخرين في تصحيح الأحاديث وتعليلها: د.حمزة المليباوي ج16/1.

10- عبقرية الإمام مسلم في ترتيب أحاديث مسنده الصحيح: د. حمزة المليباوي ج1 /22.

11- تاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو

12- الأعلام لخير الدين الزركلي ج221/3

13- معجم المؤلفين: في عديد من الأجزاء

14- دراسات في النحو: صلاح الدين الزعبلاوي ج 638/1 و609

15- مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ع230/3 و287

16- مجلة البيان عدد 3/14.

17- مجلة المنار أعداد 5 و6 و5 و30 و34 و35 1.

18- مجلة الرسالة عدد 676 /12.

19- الشرح الكبير لمختصر الأصول: محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي 20 المفصل في فقه الدعوة إلى الله.